فصل فى الكلام على الكرامات

اعلم أن الكلام فى الكرامات ينحصر فى طرفين:

الطرف الأول: الجـــواز.

والثـــانى: الوقـــوع.

أما الجواز فلا خفاء أن ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات؛ لأنه لو لم يكن من الممكنات، فإما أن يكون من الواجبات، وما أن يكون من المستحيلات، وباطل أن يكون من المستحيلات فإن المستحيل هو الذى لو قدر وجوده لزم منه محال عقلى، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلى، وباطل أن يكون جريان الكرامات على الأولياء وجوبا إذا الطائفة مجمعة على أنه قد يكون الولى وليًا وإن لم تخرق العادة له.

فتعين أن يكون من الجائزات، وكل شىء كان من الجائزات لا يحيله العقل، وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله به أولياءه.

ثم إن هذه الكرامات قد تكون طيًا للأرض، ومشيا على الماء، وطيرانا فى الهواء، واطلاعا على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة، وتكثيرًا لطعام أو شراب، أو إتيانا بثمرة فى غير إبانها، أو اتباع ماء من غير حفر، أو تسخير حيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر فى غير وقته، أو صبرا عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة أو إثمارا لشجرة يابسة ما ليس عادتها أن تكون مثمرة له، وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية.

وكرامات هى عند أهل الله أفضل منها وأجل وهى الكرامة المعنوية: كالمعرفة بالله، والخشية له، ودوام المراقبة له، والمسارعة لامتثال أمره ونهيه، والرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين، ودوام الثقة به، وصدق التوكل عليه، إلى غير ذلك.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

الطى على قسمين: طى أصغر وطى أكبر.

فالطى الأصغر لعامة هذه الطائفة أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها فى نفس واحد.

والطى الأكبر طى أوصاف النفوس.

وصدق رضى الله عنه فإن طى الأرض لو أعجزك الله عنه وأفقدك إياه ما نقص ذلك من رتبتك عنده إذا قمت له بالوفاء فى العبودية، وطى أوصاف النفوس لو لم تقدم عليه به لكنت من المعتوبين وحشرت فى زمرة الغافلين.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن

أعطيها ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب وذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا، وكل كرامة لا يصحبها الرضا من الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور.

واعلم أن اطلاع أولياء الله على بعض الغيوب لا يحيله العقل وقد ورد به النقل.

قال أبو بكر لعائشة رضى الله عنهما فى مرض موته وزوجته حامل: إنما هما أخواك وأختاك وبطن خارجة أراها جارية فأخبر بأن فى بطن امرأته جارية وكان كما قال رضى الله عنه.

وقال عمر رضى الله عنه: يا سارية الجبل، وسارية بأقصى العراق؛ فسمع سارية صوته وكان قد أطلعه الله على سارية وقد أحاط به العدو فأمره بالانحياز إلى الجبل فانحاز هو والجيش الذى كان معه فانتصروا وظفروا وكان قد قال ذلك وهو فى أثناء خطبته على المنبر فترك الخطبة، وقال يا سارية الجبل، وعاد إلى خطبته، فجاء بعض الصحابة إلى على رضى الله عنه فقالوا له: بينما عمر اليوم يخطب إذا ترك خطبته وقال: يا سارية الجبل، ثم عاد إلى خطبته، فقال على: ويحكم دعوا عمر فإنه ما دخل فى شىء إلا كان له المخرج منه، فبعد ذلك قدم سارية وأخبر عن ذلك اليوم أنه سمع نداء عمر فى الوقت الذى نادى فيه عمر(١٤٧).

وقول عثمان رضى الله عنه لداخل دخل عليه وكان قد نظر إلى محاسن امرأة فى الطريق: يدخل أحدكم وآثار الزنى بادية فى وجهه.

وأما على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد جاء عنه فى هذا الباب العجب العجاب حتى إنه ذكر الأخباريون عنه أنه أرجف بالكوفة أن معاوية قد مات فقال رضى الله عنه إذا بلغه ذلك: والله ما مات ولن يموت حتى يملك ما تحت قدمى هاتين، وإنما أراد ابن هند أن يشيع ذلك حتى يستثير علمى فيه، فمن يومئذ كاتب أهل الكوفة معاوية، وعلموا أن الأمر صائر إليه.

وحكايات الأولياء فى كل عصر ومصر تتضمن ثبوت ذلك بما بلغ حد التواتر فلا يمكن جحده.

ثم أنا أدلك - رحمك الله - على أمر يسهل عليك التصديق بذلك، وهو أن اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله ليس بجثمانيته ولا وجود صورته، وإنما هو بنور الحق فيه، دليل ذلك قوله ﷺ:

---

(١٤٧) يقول ابن خلدون فى هذا المقام:

(وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعربة عن المقاصد المذمومة وإنما يقصدون جمع الهمة، والإقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد، ويزيدون فى رياضتهم إلى الجمع، والجوع: التغذية بالذكر، فيها تتم وجهتهم فى هذه الرياضة، لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله، وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية، وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصرفة إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصودا من أول الأمر؛ لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله، وإنما هى لقصد التصرف والاطلاع على الغيب، وأحسن بها صفقة، فإنها فى الحقيقة شرك، قال بعضهم: «ومن آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى» أى (فقد قال بأن الله له ثان - أى أشرك بالله) فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا شىء سواه، وإذا حصل فى أثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم.

وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد الله لذاته لا لغيره، وحصول ذلك لهم معروف، ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا. وما يقع لهم من التصرف كرامة، وليس شىء من ذلك بنكير فى حقهم، وقد ذهب =

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(١٤٨).

فكيف يستغرب أن يطلع مؤمن على غيب من غيوب الله بعد أن شهد له الرسول ﷺ أنه إنما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه؟

وكذلك قوله فى الحديث الذى تقدم.

فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به - الحديث إلى آخره.

ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب بمستغرب فيه.

وفى بعض طرق هذا الحديث: فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا وقلبًا وعقلاً ويدًا ومؤيّدًا.

فإن قلت: كيف تصنع بهذه الآية؛ وهى قوله سبحانه:

﴿عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدًا، إلّا من ارتضى من رسول﴾(١٤٩).

فلم يستثن أحدًا إلا الرسول؟

فاعلم أنى سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: وفى معناه أو صدّيق أو ولىّ(١٥٠).

فإن قلت هذه زيادة على ما تضمنه الكتاب العزيز.

فاعلم أنه إذا قيل إن السلطان لم يأذن اليوم إلّا للوزير وحده ربما دخل مماليك الوزير معه،

= إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحق الأسفراييني. وأبو محمد بن أبى زيد المالكى - فرارا من التباس المعجزة بغيرها، والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدى فهو كاف.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال:

«إن فيكم محدثين، وإن منهم عمر» (أى فيكم من يخبر بالأمر كأنه حدث به).

وقد وقع للصحابه من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك فى مثل قول عمر رضى الله عنه: يا سارية الجبل - وهو سارية بن زنيم، كان قائدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات، وتورط مع المشركين فى معترك، وهم بالانهزام، وكان بقربه جبل يتجهز إليه، فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه:

«يا سارية الجبل» وسمعه سارية وهو بمكانه، ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة.

ووقع مثله أيضا لأبى بكر - رضى الله عنه - فى وصيته عائشة ابنته رضى الله عنها فى شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديقته، ثم نبهها على جذاذه لتحوزه عن الورثة، فقال فى سياق كلامه... «وإنما هما أخواك وأختاك» فقالت: (إنما هى أسماء، فمن الأخرى)؟ فقال: «إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية) فكانت جارية، وقع فى الموطأ فى باب: «ما لا يجوز من النحل».

ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم، ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء إلا أن أهل التصوف يقولون: إنه يقل فى زمن النبوة، إذا لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبى حتى إنهم يقولون:

إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها.

والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق... أهـ. مقدمة ابن خلدون ١/٥٣٢ - ٥٣٥ مع تصريف يسير.

(١٤٨) رواه البخارى فى التاريخ والترمذى عن أبى سعيد والحكيم الترمذى، والطبرانى وابن عدى عن أبى أمامه، وابن جرير عن ابن عمر.. والفراسة بكسر الفاء دقة النظر، ووفور العلم بنور البصيرة.

(١٤٩) الجن: ٢٦، ٢٧.

(١٥٠) فى تفسير الألوسى لهذه الآيات.. ظاهر الآية أنه تعالى عالم كل غيب وحده لا يظهر على غيبه المختص به، وهو ما يتعلق بذاته تعالى وصفاته عزّ وجلّ بدلالة الإضافة: إلّا رسولاً وهو كذلك، فإن غيبه تعالى لا يطلع عليه إلّا بالإعلام من رسول ملكى أو بشرى، ولا كل غيبه تعالى الخاص مطلع عليه، بل بعضه وأقل القليل منه، فدلّ المفهوم على أن غير هذا النوع الخاص من الغيب لا منع من اطلاع الله تعالى غير الرسول عليه، فهذا اهر الآية دون تعسف.. إلخ.

وكان الإذن لمتبوعهم إذنًا لهم، كذلك الولىّ إذا أطلعه الله على غيب من غيوبه فإنما ذلك لانطوائه فى جاه النبوة، وقيامه بصدق المتابعة، فما رأى ذلك بنفسه وإنما رآه بنور متبوعه.

وأيضًا أن الآية تشير إلى نفى اطلاع العباد على غيب الله إلّا من أطلعه الله.

وبيّن سبحانه سبب إطلاعه من أطلعه على غيب من غيوبه وأن ذلك إنما كان لأنه مرتضى عنده بقوله إلّا من ارتضى.

وقوله من رسول خصّ الرسول بالذكر ولم يذكر النبىّ ولا الصديق ولا الولىّ وإن كان كل منهم ممن ارتضى؛ لأن الرسول أولى بذلك مما سواه.

أمور تسهل عليك الإيمان بكرامات أولياء الله وأن لا تستكثرها عليهم:

الأوّل: أن تعلم أن قدرة الله التى لا يكبر عليها شىء هى التى أظهرت الكرامة فى هذا الولىّ فلا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة السيد؛ فجحْد الكرامة للولىّ جحدٌ لقدرة القدير؛ وعَمىً منعك من شهود عظمة وصفه سبحانه وتعالى.

الثانى: أنه ربما كان سبب إنكار الكرامة استكثارها على ذلك العبد الذى أضيفت إليه؛ وذلك العبد إنما أظهرت الكرامة عليه شهادةً بصدق طريق متبوعة؛ فهى بالنسبة إلى من ظهرت عليه وهو ذلك الولىّ كرامة؛ وهى بالنسبة إلى من ظهرت ببركات متابعته معجزة؛ فلذلك قالوا:

كل كرامة لولىّ فهى معجزة لذلك النبى الذى هذا الولىّ مُتبّع له؛ فلا تنظر إلى التابع ولكن انظر إلى عظيم المتبوع.

الثالث: أن تعلم أن الذى أعطاه الله سبحانه لأوليائه من الإيمان واليقين مما أنت مصدِّق به ومثبت له أعظم مما استغربته، وأنكرته، من اطلاع على غيب أو طيران فى الهواء، أو مشى على الماء؛ فمثلك إذا استغربت ذلك على المؤمن كمثل من يستغرب على عبدٍ من خواصّ الملك أعطاه الملك سفطًا[١٥١] مملوءًا ياقوتًا ثمينًا علمت أنت به؛ كل يا قوتة تضمّنها ذلك السفط تساوى عشرة آلاف دينار؛ ثم قال ذلك العبد الذى هو من خواص الملك أو قيل عنه: إن الملك قد أعطاه مائة دينار؛ فاستغربت أنت ذلك فهل يستصوبُ استغرابَك هذا ذو فهم ولبّ؟ وما أكرم الله تعالى العباد فى الدنيا والآخرة كرامةً بمثل كرامة الإيمان به والمعرفة بربوبيته؛ لأن كل خير من خيور الدنيا والآخرة إنما هو فرع الإيمان بالله من أحوال ومقامات، وأوراد وواردات، وكل نور وعلم وفتح، ونفوذ إلى غيب وسماع مخاطبة؛ وجريان كرامة؛ وما تضمنته الجنة من حور وقصور وأنهار وثمار، وكان به أهلها فيها من رضًى عن الله؛ ورضى من الله؛ ورؤية لله: فكل ذلك إنما هو من نتائج الإيمان؛ ووجود آثاره وإمداد أنواره.

جعلنا الله وإياك من المؤمنين بربوبية الإيمان الذى رضيه لخاصة عباده؛ وبسطنا وإياك بالتسليم له فى مراده.

واعلم أن من الناس من واجهه الخذلان من الله فأنكر كرامات أولياء الله أصلًا، فنعوذ بالله من

(١٥١) سفطا: وعاء يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء مفتوح الأوّل والوسط.

هذا المذهب؛ وهو حقيق بأن لا يذكر؛ لكن سبب ذكره أن تعلم أن الله إذا أراد أن يضل عبدًا لم ينصره عقل ولم ينفعه(١٥٢) علم.

قال الله سبحانه: ﴿ومن يُرد الله فتنَته فلن تملِكَ له مِن الله شيئًا﴾(١٥٣).

وقال سبحانه: ﴿فإن زَللتم من بعدِ ما جاءتكم البيناتُ فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾(١٥٤).

وقال سبحانه: ﴿وهو يُجير ولا يُجار عليه﴾(١٥٥).

لذلك كانت الأحوال والأقوال، والأفعال ومراتب الإنزال موقوفة على توفيقه، لا توجب أنوارًا، ولا تستحق قبولاً، ولا يستوجب صاحبها إقبالاً حتى ينصره التوفيق، ولعزازة قدره عند الله لم يذكره فى كتابه العزيز إلاّ فى موضع واحد، فقال سبحانه: ﴿وما توفيقى إلا بالله﴾(١٥٦)، والجالب للتوفيق وعلامته صدق الرجعَى إلى الله فى أوّل كل فعل وترك بتحقيق الفقر والفاقة إليه، والانغماس فى بحر الذِّلة والمسكنة بين يديه، واستصحاب ذلك إلى الفراغ ومن بعد ذلك أبدًا، وقد قال سبحانه:

﴿ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلة﴾(١٥٧).

وقال: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾(١٥٨).

فلا تدخل جنّة علمك وعملك وما أعطيت من نور وفتح، فتقول كما قال من خذل فأخبر الله عنه:

﴿ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه قال ما أظنُّ أن تبيد هذه أبدًا﴾(١٥٩) الآية.

ولكن ادخلها كما بيّن لك وقل كما رضى لك:

﴿ولوْلا إذ دخلتَ جنتك قلتَ ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله﴾(١٦٠).

وافهم ههنا قوله عليه السلام: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله كنز من كنوز الجنة» وفى روايةٍ: كنز من كنوز تحت العرش(١٦١).

فالترجمة(١٦٢) ظاهر الكنز والمكنوز فيها هو صدق التبرّى من الحوْل والقوة؛ والرجوع إلى حول الله وقوته.

---

(١٥٢) وفى ذلك يقول الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأوّل ما يجنى عليه اجتهاده

(١٥٣) المائدة: ٤١.
(١٥٤) البقرة: ٢٠٩.
(١٥٥) المؤمنون: ٨٨.
(١٥٦) هود: ٨٨.
(١٥٧) آل عمران ١٢٣.
(١٥٨) التوبة: ٦٠.
(١٥٩) الكهف: ٣٥.
(١٦٠) الكهف: ٣٩.

(١٦١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه، ولفظه فيما روى الشيخان عن أبى موسى قال: قال لى رسول الله ﷺ: ألا أدّلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

(١٦٢) أى اللفظ والكلام المنطوق به.

ومن أنكر كرامات أولياء الله فالدلائل النقلية والعقلية تردّ عليه، ويُخشى على من هذا مذهبه سوء الخاتمة.

ومن الناس فرقة أخرى صدقوا بكرامات الأولياء الذين ليسوا فى زمنهم كمعروف وسرى والجنيد وأشباههم وكذبوا بكرامات أولياء زمانهم، فهم كما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ما هى إلاّ إسرائيلية صدّقوا بموسى وعيسى عليهما السلام وكذّبوا بمحمد ﷺ لأنهم أدركوا زمانه.

وفرقة أخرى يصدّقون بأن فى مملكة الله أولياء لهم كرامات من غير أن يسلموا ذلك لأحد من أهل زمانهم معينا، فكل من ذكر لهم أنه وليّ أو نسبت إليه كرامة دافعوا إثبات ذلك بمقاييس اقتضتها عقولهم المعقولة بعقال الغفلة، المخدوعة بمتابعة الهوى، فلن يجرى عليهم هذا التصديق وجود الاقتداء ولا إشراق نور الاهتداء؛ إذ الاقتداء لا يكون بوليّ مجهول العين فى كون الله، بل الاقتداء إنما يكون بوليّ دلّك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته فى وجود خصوصيته، وألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك وكمائنها ودفائنها، ويدلّك على الجمع على الله، ويعلّمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك فى طريقك حتى تصل إلى الله، ويوقفك على إساءة نفسك، ويعرّفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه(١٦٣).

فإن قلت: فأين من هذا وصفه؟ لقد دللتنى على أغرب من عنقاء مغرب.

فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدَّالِّين، وإنما قد يعوزك وجود الصدق فى طلبهم، جد صدقًا تجد مرشدًا، وتجد ذلك فى آيتين من كتاب الله: قال الله سبحانه:

﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه﴾(١٦٤).

وقال سبحانه: ﴿فلو صدَقوا الله لكان خيرًا لهم﴾(١٦٥).

فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن للماء، والخائف للأمن؛ لوجدت ذلك

---

(١٦٣) يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدًا، يقول أبو يزيد البسطامى: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.

وقال أبو على الدقاق. الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقه نفسًا فنفسًا، فهو عابد هواه لا يجد نفاذًا.

ويشترط الرازى فى الشيخ أن يكون مخلصًا صادقًا قد انتهج الصراط المستقيم وأن يكون سالكًا: أما السالك فلأن الوصول تارة بالجذبة: وقال تعالى: «الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب»، وأخرى بالسلوك.

والأوّل لا يصحّ أن يقتدى به لأنه مثل من وجد كنزًا غنيًا، فإنه وإن كان ذا مال لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال. فلا ينفع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب، وأما الثانى فهو الذى يصلح لتربية المريد لأن من سلك الطريق، وعرف مراحلها ومنازلها، واطلع على متالفها ومعاطبها أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل.

(١٦٤) النمل: ٦٢.

(١٦٥) محمد: ٢١.

أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريبًا ولك مجيبًا، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك؛ ولتوجّه الحق بتبيين ذلك إليك؛ فهذا الكلام فى طريق الجواز والوقوع جميعًا.

وذكر أعيان الكرامات التى اتّفقت للسلف رضى الله عنهم لا يستطاع حصرها؛ وقد أشبع القول فيها الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى رسالته وأفرد له بابًا.

واعلم أن الكرامة تارةً تظهر للولىّ فى نفسه.

وتارةً تظهر فيه لغيره.

فإن ظهرت للولىّ فى نفسه فالمراد تعريفه بقدرة الله وفرديته وأحديّته؛ وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب؛ وأن العوائد هو حاكم عليها ليس هى حاكمة عليه.

وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته، وسحب شمس أحديته: فواقف عندها مخذول، ونافذ منها إليه هو بالعناية موصول.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية، بجمع لا يفترق، وأمر لا يتعدّد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد.

أيستوى من تعرّف الله إليه بنوره بمن تعرّف إلى الله بعقله!

ولأجل أنها تثبيت لمن أظهرت له ربما وجدها أهل البدايات فى بداياتهم وفقدها أرباب النهايات فى نهايتهم؛ إذ ما عليه أهل النهاية فى الرسوخ فى اليقين والقوّة والتمكين لا يحتاجون معه إلى مثبِّت، وهكذا كان السلف رضى الله عنهم لم يحوجهم الحق سبحانه إلى وجود الكرامات الحسّية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية، ولا يحتاج جبل إلى مرساة، فالكرامة دافعة لزلزلة الشك فى المنّة، ومعرفة بفضل الله فيمن أظهرت عليه، وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه.

والناس فى الكرامات على ثلاثة أقسام:

قوم يجعلونها غاية الأمر، فإن وجدوها عظموا من أظهرت عليه، وإن فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم إليه.

وقسم قالوا: وما هى الكرامات؟ إنما هى خدع يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا على حدودهم، وحتى لا يلجوا مقامًا ليس هو لهم، حتى قال أبو تراب النخشبى لأبى عباس الرَّقى: ما يقول أصحابك فى هذه الأمور التى يكرم الله بها عباده؟ فقال: ما رأيت أحدًا إلّا وهو يؤمن بها. فقال: من لم يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال.

فقلت: ما أعرف لهم قولًا.

فقال: بلى قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع فى حالة السكون إليها. فأما من لم يقترح ذلك ولم يساكنها فتلك مرتبة الربانيين.

وكان هذا من أبى تراب بعد أن عطش أصحابه فضرب بيده الأرض فنبع الماء.

فقال فتىً هنالك: أريد أن أشربه فى قدح.

فضرب بيده إلى الأرض فناوله قدحًا من زجاج أبيض فشرب وسقانا.

قال أبو العباس الرقى: وما زال القدح معنا إلى مكة.

والقول الفصل فى ذلك أنه لا ينبغى أن تطلب، أدبًا مع الله، ومن أظهرت عليه عُظِّم لأنها شاهدة له بالاستقامة مع الله.

القسم الثانى: وهو أن تظهر الكرامة فى الولىّ لغيره، فالمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذى شهدها بصحّة طريق هذا الولىّ الذى أظهرت عليه الكرامة: إما أن يكون جاحدًا فيرجع إلى الاعتراف، أو كافرًا فيعود إلى الإيمان، أو شاكًا فى خصوصية ذلك العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من ودائع الإحسان.

وقد انبسط الكلام فى هذه المقدمة، وما كان لنا باختيار، ولكن قد تضمنت علومًا وأسرارًا، وأَطْلَعَتْ على من له نصيب من المنّة مشرقات أنوار.

وهذا أوان ابتدائنا بما قصدنا، وإظهارنا ما إليه صمدنا[١٦٦]، والله هو القائم بالبيان، وهو ولىّ الفضل والإحسان، له الحمد كما يجب لجلاله، والشكر لتوالى نعمه وأفضاله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وأما الكتاب فهو ينقسم كما تقدم إلى عشرة أبواب:

---

(١٦٦) صمدنا: قصدنا.